إعادة تكوين الوحدة اللبنانية الوطنية، وتركيب لبنان الكبير الذي قام سنة ١٩٢٠ بقرار من فرنسا عبر ضم الجنوب والبقاع والشمال إليه، يصبح أمراً بعيد المنال، لا سيما وأن الأنباء لا تزال تترى وتتالى عن رغبة أطراف عدة مشتركة في أزمة المنطقة داخلياً وخارجياً، لا ترغب أن يعود لبنان كما كان.

وإذن، فإن الأنباء التي تشير إلى تصريح أحد المسؤولين المقربين من مناحيم بيغن بأن من الأفضل إبقاء الجنوب بيد إسرائيل هو والجبل مع بقاء سوريا في البقاع والشمال، إلى أن تحل أزمة الشرق الأوسط، لا يعود مستغرباً وسط هذه الأجواء. كذلك، لا يعود يدهش توقع شمعون بيريس أن يعود لبنان إلى حدوده الصغرى التي كان عليها قبل أن تنشأ دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠. ولن يعجب المراقبون بعدها، إذا ما سمعوا أن «العزيز» الدكتور هنري كيسنجر يدعو اليوم إلى بقاء إسرائيل وسوريا في لبنان لكي يكون لكليهما مجال أمني حيوي يحمي أرضهما وحدودهما إلى حين قيام اتفاقية سلام. ومن ذا الذي تذهله الأنباء الصحافية التي تروي عن لسان رئيس الجمهورية اللبنانية السابق الياس سركيس، أنه في العام ١٩٦٤ وضع الحكم الشهابي يده على تفاصيل مشروع دقيق لتقسيم لبنان إلى دويلات تبدل وجهه السياسي والديمغرافي ــ كما تروي مجلة الحوادث في عددها الأخير رقم (١٣٦٥) ص ١٤ ــ بعدما ضجت الأسماع من إشارات العميد ريمون إده والرئيس سليمان فرنجية إلى أمثال هذه المخططات، وبعد أن أصبح معروفاً للجميع خبر المراسلات الشهيرة المتبادلة بين بن ــ غوريون وموشيه شاريت وزير الخارجية الإسرائيلي آنذاك، ومفادها وجوب إثارة النعرات الطائفية في لبنان لتفتيته عبر قيام كيانات هزيلة فيه، تبرّر وجود دولة إسرائيل في شرق مفتت ومنقسم دينياً وطائفياً ومذهبياً.

لكن ما يخيف الطرف اللبناني والمراقبين، ليس أنباء مثل هذه المشاريع التي سبق أن طرحت إبّان مفاوضات سايكس ــ بيكو الفرنسية الانكليزية عام ١٩١٦، وما تزال تطرح إلى اليوم، بقدر ما يخيفه «غول» حقيقي يدعى فعلاً وقولاً «بالأمر الواقع». فإسرائيل التي لم يكن معترفاً بها، ولم تكن مقبولة من أحد قبل عشر من السنين تقريباً (قبل عام ١٩٧٣ وعام ١٩٧٤ ــ اتفاقية الكيلومتر ١٠١ وما تبعها) أصبحت الآن دولة يقايض معها بالسلام العربي الأرض التي احتلتها في عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧، وذلك لأنها «أمر واقع» عمره يقارب خمساً وثلاثين سنة. وقبرص، التي حسب البعض أن انفجار العنف الطائفي فيها أوائل السبعينات ــ كما حدث في لبنان ــ سيكون مؤقتاً فيعود كل شيء إلى حاله، لا تزال منقسمة طائفياً إلى اليوم بين جمهورية قبرصية يونانية وشبه جمهورية قبرصية تركية، و «الأمر الواقع» ما يزال يفعل فعله في الجغرافيا والتاريخ، وفي النفوس والنصوص. ترى، أي شيء يمنع الانقسام الطائفي والتشرذم المناطقي ــ وعمره في لبنان تقريباً من عمر الأزمة القبرصية وربع عمر دولة إسرائيل ــ من التحول إلى «أمر واقع» مستجد حقيقي وقائم في المنطقة، إذا ما استمرت الحال على هذا المنوال قدراً من الزمن أطول، ومرت السنون و «الأمر الواقع» اللبناني الجديد، لا يحول ولا يزول. وكيف لا يخشى الطرف اللبناني ومعه المراقبون ما أشير إليه آنفاً، طالما أن الاحتلال الإسرائيلي للبنان قد ولّد معادلة جديدة في المنطقة، تقول: إن في